

التأثيرات الحضارية بين غرناطة الإسلامية والممالك المسيحية
Cultural influences between Islamic Granada and the Christian
kingdoms

د. محمد الغريسي (تونس)

باحث بمدرسة الدكتوراه، جامعة الزيتونة – تونس

ghrissimohamed22160187@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/05/20 تاريخ القبول: 2025/06/11 تاريخ النشر: 2025/06/15

ملخص

تتمثل خلاصة هذه الورقة العلمية في توضيح أنّ الأندلس قد عاشت عبر تاريخها الإسلامي صراعا مع الممالك النصرانية في شبه الجزيرة الأيبيرية وقد بلغ الصراع أوجه ما عجل بسقوط المدن الأندلسية عدا غرناطة التي ظلت شاهدة على تلك الحقبة الأخيرة من الوجود الإسلامي في الأندلس؛ حيث أصبحت مركز ثقل النشاط الحضاري والفكري بعد أن أصبحت مقصدا للمسلمين التّازحين وتمكّنت رغم قساوة الظروف من الصّمود في وجه الطّغيان إلى أن سقطت سنة 897هـ/1492م. ورغم تدهور أوضاعها السياسيّة فقد عرفت غرناطة في عهد مملكة بني الأحمر حركة علمية وثقافيّة قلّ نظيرها، ودار بينها وبين الممالك المسيحية تأثيرات حضارية ساهمت عدّة أطراف في تحقيقها ومنهم اليهود والمستعربون وغيرهم... وقد برز هذا التأثير منذ الاستيلاء على مدينة طليطلة وترجمة أعمال المسلمين العلميّة والفلسفيّة إلى اللّغة اللاتينيّة ما ساهم في تكوين الفكر الإسبانيّ والأوروبيّ عامّة. وكلّ ذلك وغيره يجعل من غرناطة جديرة بأن يحتفى بها المسلمون في كلّ آن وحين لما تمثّله من رمز عريق وحقبة راقية آمن أصحابها بالتعايش السلمي بين الأديان. ولتوضيح ما سبق ستركز هذه الورقة العلميّة على عنصرين أساسيين أولهما الخلفية

الإسلامية لغرناطة وثانيهما التأثيرات الحضاريّة بين غرناطة الإسلاميّة والممالك المسيحيّة سياسيًا وفكريًا واجتماعيًا وثالثها آفاق الحوار الإسلاميّ المسيحيّ. الكلمات المفتاحية: التأثيرات الحضارية، غرناطة الإسلامية، الممالك المسيحية، الأندلس...

Summary:

The conclusion of this scientific paper is to clarify that Andalusia has experienced, throughout its Islamic history, a conflict with the Christian kingdoms in the Iberian Peninsula. The conflict reached its peak, which hastened the fall of the Andalusian cities, with the exception of Granada, which remained a witness to that last era of the Islamic presence in Andalusia. It became the center of gravity of cultural and intellectual activity after it became a destination for displaced Muslims. Despite the harsh circumstances, it was able to withstand tyranny until it fell in the year 897 AH/1492 AD.

Despite the deterioration of its political situation, Granada witnessed, during the era of the Red Kingdom, a scientific and cultural movement that was unparalleled, and between it and the Christian kingdoms there were cultural influences that several parties contributed to achieving, including the Jews, the Arabs, and others... This influence has become apparent since the seizure of the city of Toledo and the translation of Muslim scientific works. Philosophy and the Latin language contributed to the formation of Spanish and European thought in general.

All of this and more makes Granada worthy of being celebrated by Muslims at all times because it represents an ancient symbol and a sophisticated era whose owners believed in peaceful coexistence between religions. To clarify the above, this scientific paper will focus on two basic elements, the first of which is the Islamic background of Granada, the second of which is the cultural influences between Islamic Granada and the Christian

kingdoms politically, intellectually, and socially, and the third of which is the prospects for Islamic-Christian dialogue.

Keywords: Cultural influences, Islamic Granada, Christian kingdoms, Andalusia...

مقدمة:

مثّلت غرناطة في القرون الثلاثة التي سبقت سقوطها سنة 897 للهجرة مركزاً حضاريّاً للنشاطات السياسيّة والاقتصاديّة والفكريّة لمسلمي الأندلس بعد أن حوصروا قسراً في هذه المدينة عقب أن تأمر عليهم القريب والبعيد؛ وفي هذا الحيز الجغرافيّ تركوا معالم حضاريّة لم يمحها جور الزّمان، فظلّ حاضر المدينة يشهد على مآثر وأمجاد ماضيها وقد شاء القدر أن تغدو مستودعاً لعبقريّة الأندلسيّين وعلومهم وفنونهم وأن تضطلع بذلك الكفاح القديم ضدّ الممالك النّصرانيّة التي تكالبت على إسقاطها، ورغم ذلك استطاعت أن تحقّق نجاحات باهرة توازي نجاحات ممالك الأندلس التي سبقتها واستطاع حكام غرناطة المحافظة على هذه الأمانة ما يزيد عن العقدين والنصف.

ولمّا كانت هذه الورقة العلميّة تروم البحث عن التّأثيرات الحضاريّة بين غرناطة الإسلاميّة والممالك النّصرانيّة سوف لن نتطرق للجوانب التّاريخيّة المتّصلة رأساً بنشأة هذه الإمارة وإنّما سنعمل على بيان التّركيبة الديموغرافيّة لغرناطة ثمّ نعقب باستجلاء مظاهر التّأثيرات الحضاريّة في ميادين الاجتماع والعلم والثّقافة والاقتصاد وكلّ ذلك غرضه الاحتفاء بهذه المدينة وبأمجادها ومآثرها.

أولاً: التركيبة الديموغرافية لغرناطة الإسلامية

التقت في المجتمع الأندلسي عناصر بشرية متنوعة أبرزها العرب والبربر والمستعربون¹ واليهود والصقالبة²، وبمرور الزمن لم يعد بالإمكان التمييز بين هذه العناصر؛ لهذا نرى من المناسب حصر العناصر السكانية حتى يتسنى لنا إمالة اللثام عن التأثيرات الحضارية بين غرناطة وجيرانها، وعموماً فإن أهم العناصر البشرية هي:

1) المسلمون

لا ريب أن غالبية سكان مملكة غرناطة كانت من المسلمين الذين هُجروا من الإمارات الأندلسية وتجمّعوا تحت راية بني الأحمر³؛ حيث أعلن الوفد الأرجوني⁴ الذي اجتمع في المجمع المسكوني⁵ في روما سنة 711هـ/1311م، أيام البابا كليمانت الحادي

¹ المستعربون بالإسبانية (mozárabes) : هم المسيحيون الذين عاصروا وسكنوا تحت الحكم الإسلامي في الأندلس. أطلق عليهم المستعربون لكونهم تبّنوا تقاليد العرب ولغتهم واهتموا بالحرف العربي وكانوا يجيدون الشعر والنثر العربي وينظمون القصائد ويتفاخرون بإتقانهم للغة العربية وخلال الحكم الأموي كله اعتمد عليهم الأمويون في إدارة شؤون البلاد الاقتصادية وتنظيم الدولة والعلوم وقد برز المسيحيون في العلوم والطب والفلك.

² أصل كلمة الصقالبة مأخوذة من صقلاب، أما في اللغة الصقلية فهي سلافينو (salabeninn) وكانت في الماضي تعني أهل تلك البلاد وعرفت في اللغة اليونانية باللفظ (sklabeno) وهي تعني المعنى السابق نفسه واستمرت هذه التسمية حتى القرن الأول الهجري / السابع الميلادي ومن ثم أصبحت تدل على معنى العبد (sklavos) ، وهذه التسمية كانت معروفة لدى العرب لاسيما بعد دخول المسلمين في معارك مع الدولة البيزنطية الذين كانوا يعتمدون فيها على الكثير من العبيد الصقالبة وهم عبيد وأرقاء خطفهم الجرمان من قومية السلاف وأصبحوا أحد عناصر المجتمع الأندلسي والمغاربي والصقلي خلال العصور الوسطى وكانت تتألف من الخدم والمماليك الذين جلبهم النخاسون الجرمان واليهود أطفالاً من بلاد الفرنجة.

³ بنو نصر، أو النصريون، أو بنو الأحمر، وهي أسرة حكمت غرناطة في أواخر العصر الإسلامي بالأندلس حتى سقوط غرناطة في عصر آخر ملوك بني الأحمر أبو عبد الله محمد عام 1492 م. وهي آخر أسرة مسلمة حكمت في الأندلس.

⁴ نسبة للمملكة التي كانت قائمة في شبه الجزيرة الأيبيرية.

⁵ معناه اجتماع رعاة ومعلمي الكنيسة من جميع جهات المسكونة "العالم"، لمناقشة أمر يخص الإيمان المسيحي، بهدف حفظ النظام وسلامة العقيدة بين المسيحيين في شتى أنحاء العالم

عشر (https://www.britannica) أنّ عدد سكان مدينة غرناطة هو مائتا ألف نسمة وجلهم من المسلمين. (A.Gimenez Soler, p235)

وكان الغرناطيّون يعتزّون بأصالة نسبهم حيث حرص كثير على وصل نسبهم بأرومات عربيّة عريقة؛ فبنوا نصر أصحاب الحمراء جعلوا همّهم إقناع أتباعهم وتذكيرهم بانتمائهم إلى سعد بن عبادة أحد زعماء الأنصار، (ابن الأثير، 1994، 441/2) وها هو المقري (ت 992هـ/1041م) في نفح الطيب يشيد باستيطان العرب في الأندلس فيقول: "فأما العدنانيّون... ومنهم قريش... وأما بنو هاشم... بالأندلس... وأما بنو أميّة فمنهم خلفاء الأندلس... وفي الأندلس من ينسب إلى جمح وإلى بني عبد الدار وكثير من قريش المعروفون بالفهريّين... وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير... فأما تميم... فذكر ابن غالب أيضا أنّهم خلق كثير بالأندلس... ومن قيس من ينتسب إلى هوازن... وذكر ابن غالب أنّ منهم بغرناطة كثيرا... والقحطانية هم المعروفون باليمانيّة وهم الأكثر بالأندلس والملك فيهم أرسخ" (المقري، 1900، 290/1-293).

(2) النّصارى

كفلت دولة الإسلام في غرناطة الحرّيّة الدينيّة للنّصارى حيث سمح لهم المسلمون بالحفاظ على ممتلكاتهم الدينيّة كالكنائس وممتلكاتها كالعقارات والمحلات التجاريّة والأراضي الزراعيّة بل سمحوا لهم بقرع النّواقيس وبناء الكنائس. وكان من أبرز المجتمعات المسيحيّة المستعربون أو النّصارى المعاهدون. ويخبرنا صاحب الإحاطة أنّ النّصارى كانوا يقيمون شعائرهم الدينيّة في كنيسة تقع خارج الأسوار قرب باب البيرة يقول ابن الخطيب (ت 776هـ/1374م): "ولما استقر بهذه الكورة الكريمة أهل الإسلاميّة... استمرّ سكانهم في غمار من الرّوم يعالجون فلاحه الأرض وعمران

ويقترّب هذا المصطلح من تعبير "مؤتمر دولي"، ولكنه لا يخصّ الدول، بل الكنائس المسيحية في البلدان المختلفة.

القرى... وكانت لهم بخارج الحضرة... تجاه باب البيرة... كنيسة شهيرة". (ابن الخطيب، 1424هـ، 21/1).

هذا، وقد حافظ النصارى في مملكة غرناطة على حضورهم ولم يكن بينهم وبين المسلمين أيّ قطيعة؛ وقد بين يوسف شكري فرحات أنّ أفراد الحرس الملكي كانوا من النصارى الذين تطوّعوا لحماية السّلطان وأنّ العاصمة غرناطة كانت طوال العهد النّصري ملجأ لرجال السياسة الإفرنج؛ ونذكر على سبيل المثال "دون فليب" و"دون نونيو" الذين تركا قشتالة في عهد ألفونس العاشر وطلبوا الحماية عند محمّد الثاني. (A.Gimenez Soler,p371)

وكان للنصارى دور كبير ومهمّ في حقل التّجارة رغم قلّة عددهم وهؤلاء استقروا في المناطق الحدوديّة وأسهموا في تنشيط حركة المرفأ. وكانوا يدفعون الضّرائب على السّلع المستوردة؛ ففي سنة 768هـ/1367م أبرمت في غرناطة معاهدة بين محمد الخامس وممثّلين عن بطرس الرابع ملك أرجون سمح بموجبها للتّجار الأرغونيين التنقّل بحريّة في المناطق العربيّة بالأندلس والقيام بنشاطهم التّجاريّ شرط أن يدفعوا الضرائب المعروفة. ومنذ القرن 15 للميلاد (التاسع للهجرة) قويت العلاقات التّجاريّة بين إيطاليا والدّولة النصريّة فعرفت المملكة عددا من رجال الأعمال قدموا من جنوى وأنشأوا لهم مراكز تجاريّة في مالقة والمنكب. (Company Monpalay, Vol1, P81)

(3) اليهود

كان لليهود في أثناء الفتح الإسلامي دور كبير بعدما وجدوا في العرب خلاصا من القوط واضطهادهم الديني، وقد تعزّزت مكانتهم وأصبحت مدينة لوسينا وكرمونا مدينتين يهوديتين مزدهرتين. وفي غرناطة أوكل الولاة العرب إلى اليهود أمر حماية المدينة؛ فكثّر عددهم حتّى كان منهم الوزراء والمستشارون وفي مقدمتهم إسماعيل بن يوسف بن النغيلة (ت449هـ/1057م) وسائر أفراد عائلته، ومهما يكون من أمر فلا خلاف في كفاءة ابن النغيلة الذي اجتمعت فيه مواصفات الوزارة إلّا أنّ ما يبعث على التساؤل هو كيف استطاع بلوغ هذا المنصب؟

وفي أيام بني الأحمر، عرفت جماعات اليهود حقبة طويلة من الهدوء بفضل رعاية الحكّام شؤونهم وتأمين مصالحهم. وقد جعل بنو نصر عليهم عينا ساهرة حالت دون قيامهم بأيّة انتفاضة معادية وعاملوهم كسائر أهل الكتاب ممّن آمن الإسلام حمايتهم وجعل لهم لباسا يميّزهم عن غيرهم. (المقريزي، 350/2)

ويصعب علينا معرفة عدد السّكان اليهود وعامّة ما يمكن التّأكد منه أنّهم توزّعوا في المدن الكبرى؛ حيث تجمّعوا في أحياء خاصّة بهم مع بيوت متلاصقة ودروب ضيّقة وساحات صغيرة. وفي غرناطة تجمّع اليهود في وسط المدينة وفي حي البيازين ولما تريد من البلاد عام 898هـ/1492م هدم الملك فردينا ندو بيوتهم وشيّد مكانها كنيسة على اسم العذراء مريم.

ونظيف لما سبق أنّ اليهود أتقنوا اللّغة العربيّة فاشتغل بعضهم في التّرجمة ومن أمثلة هؤلاء عنرا الرّندي الذي قام بدور الوسيط قبل تسليم مدينة رندة سنة 890هـ/1485م. كما أن أبا عبد الله آخر ملوك بني الأحمر كان يستعين بمترجمين يهوديين في مهمّات رسميّة لدى ملوك غرناطة وفاس وهما صموئيل بن منسى وأخوه يهوذا. (Revista, PP1-46)

وخلاصة ما يمكن التوصل إليه في هذا الإطار أنّ غرناطة كانت مدينة متنوّعة ثقافيًا ودينيًا حيث عاشت فيها مجتمعات مسلمة ومسيحيّة ويهودية جنبًا إلى جنب؛ فكانت تشتهر بالوئام الدينيّ والتّعايش السلميّ بين شتّى الطوائف مع مراعاة حقوق الأقليّات الدينيّة؛ فكانت حياة السكّان مليئة بالنّشاطات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة ممّا جعلها واحدة من أبرز المراكز الحضاريّة في العالم.

وقد مثّل التنوّع الثقافيّ والتّعايش الدينيّ في المجتمع الغرناطيّ أحد أبرز مميّزات هذا المعقل الإسلاميّ خلال فترة حكم الأندلس ويعدّ التنوّع الثقافيّ من بين العوامل التي أدّت إلى تطوير الحضارة الأندلسيّة وخاصّة غرناطة بالغرب الإسلاميّ وجعلتها مركزًا للعلم والفنّ والثّقافة في العالم الإسلاميّ بل في العالم كلّه.

هذا وإنّ مطالعة أخبار غرناطة مثل ما مر معنا يوضّح أنّها كانت بيئة متنوّعة ثقافيًا اتّسعت أرضها ليتعايش فيها المسلمون والمسيحيّون واليهود جنبًا إلى جنب وتبادل الخبرات والمعارف والتّقاليد ما يؤهّل غرناطة لتكون أنموذجًا للتّعايش الدينيّ والتّداخل الثقافيّ والتّكامل المعرفيّ وصوره لعطاء الحضارة الإسلاميّة الرّاقية التي تنشُد الإعمار والبناء وتروم النّفع الإنسانيّ دون هويّة أو نحلة.

ثانياً: نماذج من التّأثيرات الحضاريّة لغرناطة الإسلاميّة على الممالك

النصرانيّة

إنّ التّقدّم الهائل الذي أحرزته غرناطة في شتّى الميادين جعلها مملكة أُمعيّة في أوروبا كلّها ومردّد ذلك كما أشار ابن خلدون (ت808هـ/1406م) "أنّ المغلوب مولع أبداً بالإقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أنّ النّفس تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه إمّا لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أنّ انقيادها ليس لغلب طبيعيّ إنّما هو لكمال الغالب"، (ابن خلدون، 1988، ص84) وفيما سيأتي سنعمل على إبراز طرفاً من هذه التّأثيرات الحضاريّة ومنها:

1) العناية بالمظهر الخارجي والنّظافة العامّة

يذكر المقرّي (ت 1041هـ/1631م) أنّ أهل الأندلس "أشدّ خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون... وفيهم من لا يكون عنده إلّا ما يقوته يومه فيطويه صائما ويتنازع صابونا يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها". (المقرّي، 223/1)

يفيدنا هذا الأثر في استجلاء عناية الأندلسيين الخاصّة بالنّظافة ويشهد لذلك أنّ الأمراء وأبناء الخاصّة بنوا الحمامات في قصورهم وكذلك كان أبناء الطبقات الفقيرة يقصدون الحمامات العامّة المنتشرة في الأحياء الشعبيّة ولم تكن الحمامات العامّة متوفرة لدى أبناء المدن وحدهم؛ فالقرويون كانت لديهم حمّاماتهم أيضا وما تزال اليوم في جبال البشرات وفي ضواحي غرناطة معالم واضحة عن الحمّامات القرويّة. (Encycl. de l'Islam, III , P.145-149)

وكذلك الحال بالنسبة للنّسوة اللّاتي كنّ يقصدن الحمّامات أكثر من الرّجال وغالبا ما كنّ يخرجن في أوقات العصر. ولم تكن الحمّامات أماكن للاغتسال فحسب، بل إنّ النّساء كنّ يغتنمن تلك الأوقات لعقد اللّقاءات وتبادل الأحاديث الطّويلة المتنوّعة. (Revista, PP408-417)

ومن المفيد في هذا السياق التّأكيد أنّ المدن المجاورة وغيرها من مدن الأندلس سابقا قد تأثّرت بهذه الثّقافة؛ فكان للملوك وأبناء الأشراف والرّهبان وعامّة الشّعب حمّاماتهم. وتفيدنا كتب المؤرّخين أنّ بعض الحمّامات في مايورقا ومدريد كانت تؤجّر إلى النّساء المدجّنات... وفي الحيّ الإسلامي من مدينة ترسونا من أعمال أراغون بنى أحد الأغنياء حمّاما لكن يحظر على غير المسلمين دخوله في أعياد المسلمين.

وفي مطلع القرن السّادس عشر أظهر رجال الدّين الإسبان معارضتهم لعادة ارتياد الحمّامات؛ وكانت معارضتهم شديدة إلى درجة حملت الملك فيليب الثاني على إصدار أمر بإقفال الحمّامات في كلّ المناطق. وهذا إن دلّ على شيء فهو يدلّ على

خشية هؤلاء الحكّام من أنّ مجاورتهم لغرناطة والاقتداء بشعبها وتقليد عاداته من شأنه أن يضرّ بالممالك النصرانيّة، بل إنّ بعض الحمامات -كمعالم أثريّة تؤرّخ لتلك الحقبة - لم يضرّها جور الزّمان؛ فهذا "حمام الجوزة" ورغم مضي أكثر من ألف سنة على بنائه لا يزال من أفضل الحمامات مثلما يعدّ من أقدم بنايات غرناطة الإسلاميّة التي ما زالت قائمة والتي نجت من تدمير ملوك الكاثوليك حينما شرعوا في تنصير سكّان الأندلس وغرناطة وغيرها.

(2) الرياضة والتّرفيه

يعدّ التّرفيه أحد أهمّ جوانب حياة الإنسان؛ حيث تسهم في رفع مستوى السّعادة لما له من دور في تحقيق التّوازن النّفسي والعاطفي وبناء العلاقات الاجتماعيّة وتقويتها. ولهذا عمل أبناء المدن والقرى الغرناطيّة على تسليّة أنفسهم، وكان من أبرز ما أوجدوه لهذا الغرض هو الصّيد كونه الهواية التي رافقت حياة العربيّ في جاهليّته وإسلامه. وقد أظهر الغرناطيون ميلا شديدا لهذه الهواية في أوقات فراغهم، وهنا يخبرنا ابن الخطيب في اللّحة البدرية أنّ ملوك غرناطة خاصّة محمّد الرّابع كان مغرما بالصّيد حيث كانت المناطق الغرناطيّة غنيّة بالطيور على أنواعها منها الحجلان والبطّ والحمام البريّ، وقد لجأوا إلى طيور الباز لاصطياد هذه الطّرائد وكانت تربية الباز رائجة ويستوجب تدريبه على الصّيد خبرة ومهارة اشتهر بهما الغرناطيون. (Ch.E Dufourcq, PP102-104)

وكان ممّا شغف به الغرناطيّون الفروسيّة وسباق الخيل وهي عنوان البطولة في الحرب والبلاء في المعركة ولارتباطها في العقل العربيّ بمعنى الفتوة لما فيها من صفات القوّة والنشأ والجراة والإقدام والشجاعة والوفاء. ومن الصّفات المهمّة التي يجب أن تتوافر في الفارس علاوة على بنيته الجسديّة قوّته العقليّة وقدرته على موازنة الأمور وكلّ خلق حسن يكاد يقترب فيه من الكمال. وقد كتب ابن الخطيب ممتدحا محمد بن إسماعيل بن فرج ابن إسماعيل أحد ملوك الأندلس بقوله: "كان معدودا في نبلاء

الملوك وأبناء الملوك صرامة وعزّة وشهامة وجمالاً... حَلَسَ ظهور الخيل، أفرس من جال على صهوة لا تقع العين - وإن غصّت الميادين - على أدرَبَ بركض الجياد منه مغرماً بالصَّيد، عارفاً بِسمات الشفار وشيات الخيل. (ابن الخطيب، 1373هـ، ص 77)

وفضلاً عن ذلك كان قتال الحيوانات من المشاهد التي يجد فيها النَّاسُ تسليةً كبرى ولذة خاصة؛ فقتال الدَّيكة كان لعبة شعبية راجت في أحياء غرناطة ومثلها قتال الثيران حيث في كان الغرناطيّون يجمعون بين ثور ومجموعة كلاب في ميدان مقفل وبعد معركة سريعة يدخل أحد الفرسان الحلبة ومعه رمح فيعمد إلى مناوشة الثور قبل الإجهاز عليه، وفي هذا السياق يصف الخطيب المصارع الغرناطيّ بأنه "فارس مغوار صارع الثور وهو ممتط فرسه المدرَّب ثمّ قتله برمحه. وهذا النوع من المصارعة ما يزال موجوداً في إسبانيا حتّى اليوم". ولا شك أن هذه الرياضة ظلّت تقليداً يتمّ الاحتفال به سنوياً رغم تراجع التأييد الشعبيّ لها لما فيها من إساءة إلى الحيوانات.

3) الحياة الاجتماعية والثقافية والعلمية

تتجلّى التأثيرات الحضارية في هذا الميدان في صور التسامح الدينيّ وفي علاقات المصاهرة واسعة النطاق حتى رضي المسيحيّون واعترفوا صراحة أنّهم يؤثرون الحكم العربيّ، ولم تكن العلاقات مع النصارى رسميةً فحسب، بل رافقتها علاقات شعبية غير رسمية فكانت بعض الكنائس تفتح أبوابها للمازّة من النصارى والمسلمين على حدّ سواء وتقدّم لهم الطّعام والشراب تأسياً بالمساجد التي كانت تقدّم الخدمات المجانية لعابري السبيل والمحتاجين، الأمر الذي أدّى إلى إسلام بعض النصارى لما عايشوه من سماحة الإسلام والمسلمين والأهمّ من هذا أنّهم قلدوا المسلمين في ترك أكل لحم الخنزير وقاموا بختان أبنائهم. (عبدالحليم، رجب، ص 432)

ويبقى أكبر دليل على التأثير الأندلسيّ في ثقافة الممالك النصرانية أنّ معظم أسماء الآلات الموسيقية مشتقة من أصل أندلسي وأبرز الأمثلة على ذلك العود وكانوا

ينطقونه (Laud) والرّباب (Rabel) والدّفّ (Aduf) والطّبل (Atabal) والبوق (Alboque)... وقائمة الآلات المستعارة طويلة. ومن المعقول أنّه دخل مع تلك الآلات في الغالب أصواتها المميّزة وأساليب العزف عليها. (رايت أوين، 1/715-716)

وما كان ذلك التّأثير لولا جهود أعلام الموسيقى الإسلاميّة ومنهم الكندي (ت256هـ/873م) الذي ألّف كتباً في هذا المجال ومنها "رسالة في المدخل إلى صناعة الموسيقى" و"رسالة في الإيقاع" وكذلك فعل أبو نصر محمّد الفارابي (ت339هـ/950م) الذي ألّف كتاب "صناعة الموسيقى" والذي يعدّ من أهمّ المراجع في هذا الباب. هذا بالإضافة إلى ابن سينا (ت427هـ/1037م) وزرياب (ت243هـ/857م) الذي عدّل أوتار العود وجعلها خمسة بعد أن كانت أربعة، وكذلك أدخل على الموسيقى مقامات كثيرة لم تكن معروفة قبله. وهكذا انتقل الفنّ الأندلسي إلى أمريكا اللاتينيّة فضلاً عن الممالك النّصرانية المجاورة وتحوّلت إلى رقصات معروفة مثل: لا كويكا والتّانغو الذي ينسب لفنّ الفلامنكو الموريسكيّ.

وموضع الأهميّة ممّا سبق أنّ الفنّ الأندلسيّ وما اتّصل به من غناء ورقص وتلحين كانت تتسرّب منه صور كثيرة إلى قصور ملوك الشمال المسيحيين، ولم تكن إسبانيا المسيحيّة تعرف سوى ترانيم الكنيسة وأنّها إنّما عرفت الموسيقى وألحانها ونوتها من الغناء الأندلسيّ، وهذا ما جعل بعضهم يرجع كلمة التروبادور (المنشدون الجوّالون) إلى أنّها مشتقة من الكلمة العربيّة طرب.

ويرى شوقي ضيف في كتابه الحضارة الأندلسيّة أنّ سلوك السّامعين الأندلسيين أثناء العزف مقاطعين المغني Ole... Ole (الله ... الله) لا زالت باقية تدلّ على ما كان يحدث أيّام المسلمين، والمغني الإسباني إلى عهد قريب كان يبدأ غناءه بصيحة طويلة Leli... Leli (يا ليل - يا ليل) أخذها الإسبان عن مسلمي الأندلس.

إنّ الدّارس لتاريخ المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيريّة يلاحظ أنّ رسالة التمدّن التي حملها العرب أتاحت للإسبان حضارة متكاملة سيما في ميدان العلم والمعرفة؛ فالعرب الفاتحون حملوا معهم إرثاً ثقافياً وعلمياً، ولهذا تقاطر نصارى الشّمال لتحصيل العلم وكان ذوو الطموح منهم وبعد تعلّمهم العربيّة عملوا في إدارات الدّولة المختلفة ويختلطون بأشراف العرب وتجري عليهم أحكام الإسلام ومن ظلّ منهم محتفظاً بدينه صار يحجب نساءه كالمسلمين ويقتدى بهم في أزيائهم وعاداتهم ولمههم. (عبدالحليم رجب، 451)

وهكذا أيقن النّصارى أنّ الحضارة الإسلاميّة حضارة ذات طاقة خلّاقة علمياً حيث لم يكن في استطاعة النّصارى الحصول على مؤلّفات الإغريق وفلاسفتهم إلّا عن طريق المسلمين ونقولهم بيد أنّ حركة التّرجمة لم تزدهر وتنتشر على نطاق واسع إلّا في القرن الخامس الهجريّ / الحادي عشر للميلاد، وكنتيجة لذلك قرّر بعض الباحثين أنّ المفردات العربيّة التي دخلت الإسبانيّة تقدّر بربع القاموس الإسبانيّ بينما دخلت إلى البرتغاليّة حوالي ثلاثة آلاف كلمة عربيّة واللّغة القطلانيّة أيضاً فيها الكثير من الألفاظ العربيّة. (عبدالحليم رجب، 459) وعلى سبيل المثال الكلمة القشتاليّة (Jabalon) وهي ألواح خشبيّة لتغطية السّطح وهي شبيهة بكلمة "جمل" والظاهر أنّ سنام الجمل هو الذي ولّد هذا الاستعمال للتّشابه بين شكل البناء وسنام الجمل.

الخاتمة:

انتهت هذه الورقة العلميّة إلى نتائج مهمّة نذكرها فيما يلي:

❖ إبراز أنّ الحضارة الأندلسية لم تنشأ فجأة بل مرّت بأطوار مختلفة وخضعت لمؤثرات شرقيّة باعتبارها عضواً من الجسم الحضاريّ الإسلامي مع وجود تدابير تتماشى مع ظروف المجال الجديد.

❖ التأكيد على أن وضع الأندلس الجغرافي في الأطراف الغربية النائية عن العالم الإسلاميّ وبجوار الغرب المسيحيّ جعلها في مواجهة مستمرة مع الممالك النصرانية هناك ما يجعلها أكثر الدول الإسلامية تأثراً وتأثيراً.

❖ توضيح أنّ الحضارة العربيّة الإسلاميّة في الغرب استطاعت بفضل عامل الدين واللغة أن يستوعب إرثاً يونانياً ورومانياً وغيره وأن تستثمره في بناء حضارة الأندلس.

❖ التشديد على أن الإشعاع الذي عرفته غرناطة لأكثر من عقدين لا يمارى فيه وإذا استثنينا بيزنطة فلن تجد في أوروبا مدينة تسامها في جمال أبنيتها أو في ترف حياتها أو فيما تزخر به من أنواع العلوم والآداب والفنون حتى غدا حاضر المدينة شاهداً على أمجاد ماضيها.

ومن هنا توصي الدراسة بضرورة تكثيف المؤتمرات والملتقيات والندوات العلميّة للتعريف بإشعاع الحضارة الإسلاميّة في الأندلس حتّى لا تنسى الأجيال الصفحات المشرقة من تاريخها وأن نسعى جاهدين لترسيخ شعور الفخر والاعتزاز بالانتماء أولاً ثم بالمنجز الحضاريّ ثانياً.

المصادر والمراجع:

- (1) ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق علي معوض، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ط1، 1994.
- (2) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط2، 1988.
- (3) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ط1، 1424هـ.

4) ابن الخطيب، الدولة النصرية، تصحيح محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، 1374هـ

5) عبدالحليم رجب، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، دار الكتاب المصري، القاهرة، د.ت

6) المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت – لبنان، ط1، 1900.

7) A.Gimenez Soler, la corona de Aragon y Grenada

8) Company Monpalay, Memoris Historicas sobre de la marina, Barcelona 1963, Vol.1

9) Ch.E Dufourcq, La vie quotidienne dans l'Europe Médiévale

10) J.Heers, Le Royaume de Grenade et la politique Marchande de Genès au XVe siècle,

11) Revista, Al Andalus, CSIC , Instituto de Filologia, Madrid, 1978

12) Revista, Al-Andalus, XXIII , 1958

13) Encycl. de l'Islam, III (<https://www.bnf.fr/fr/encyclopedia-de-lislam-en-ligne>).

14) <https://www.britannica.com/biography/Clement-XI>